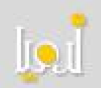
1404 هـ

المحنة

المفكر الاسلامي الشهيد محمد باقر الصدر

www.armeea.com
armeea@live.co.uk - armeea@hotmail.com



المحنة

محاضرتان حول المفهوم القرآني عن المحنة ألقاهما سماحـــة ســـيدنا الأستاذ الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر " قدس سره " مفجر الثورة الإسلامية في العراق .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن كان الحديث عن (المحنة) فما أعظم المحنة بعدك أيها الشهيد الصدر !!

ما أعظم البؤس والشقاء !!

ما أعظم اليتم والضياع !!

بعدك أيها القائد الشهيد !!

ما أقسى يد الزمان والقدر التي اختطفتك من شعبك وأمتك وأنت في بداية الطريق ! .

لا ، لا ، بل ما أشقانا نحن وما أسوأ حظنا ، إذ لم تك أهلا لوجود صرح شامخ مثلك فينا ، فقدر الله تعالى لك الشهادة ورفعك إليه ، وما كان لنا بعدك غير اليتم والضياع !

ولولا لطف الله علينا بهذه الدولة الإسلامية التي يرفع رايتها القائد العظيم الإمام الخميني (مد الله في عمره الشريف) لانطفأ في نفوسنا آخر بصيص من نور الأمل بعدك أيها الشهيد الغالي !

تحدثت لنا عن (المحنة) قبل خمسة عشر عاما ولم تكن تخطر ببالنا محنة مثلما اصطدمنا بها بعد فراقك !

أجل كنا نفكر في كل شيء عدا محنة هذا التيه وهـــذا الضـــياع الرهيب !!

كنا نستمع إليك وأنت تحذّرنا من أن " ((نتنازع ونختلف داخل إطار معرض لخطر التمزق ، داخل إطـــار مهـــدد بالفنـــاء)) ، وتصرح لنا قائلا : ((إلى متى نحن نعيش المعركة داخل إطار يحكم عليه بالفناء يوما بعد يوم ! أو يواجه خطر الفناء يوما بعد يوم ! ؟ ولا نفكر في نفس الإطار ! ولا نفكر في أن نتناسى مصـــالحنا الصغيرة في سبيل المصلحة الكبيرة)) . كنا نسمع هذا وأمثاله من فمك الشريف ، ولم نكن نقّدر أننا سنكون أحوج إلى نصـــيحتك هذه بعد استشهادك ، حيث بلغت المعركة داخل الإطار بعـــدك ذروتها ، وصرنا أحوج ما نكون إلى هذه النصيحة التي أعلنتـــها قبل خمسه عشر عاماً .

أجل لقد حان وقت الإصـــغاء إلى نصـــائح قائـــدنا الشـــهيد والاستمرار على خطه الرسالي البنّاء ، خط الاتحـــاد والتضـــحية والإيثار . وهذا ما نأمل تحققه بيننا بأفضل ما يكون إن شـــاء الله تعالى .

وهاتان محاضرتان من أهم المحاضرات التوجيهية التي كان يلقيهـــا سماحته (رضوان الله تعالى عليه) بين حين وآخر علـــى طـــلاب

مدرسته ليربيهم تربية رسالية صحيحة – بالإضافة إلى تربيتهم العلمية – إيمانا منه بأن التربية العلمية على صعيد الفقه و الأصول لا تكفي لأبناء الحوزة العلمية ((لأن مطالب الفقه والأصول تملأ عقل الإنسان ولكنها لا تملأ ضميره ، لا تملأ وجدانه ، فسوف يمتلئ عقله علما لكن ضميره ووجدانه قد يبقى فارغاً ..))

وقد تحدّث الشهيد (رضوان الله تعالى عليه) في هاتين المحاضرتين حول (المفهوم القرآني عن المحنة) ، وكان المحرك الأساس لذلك هي المحنة الكبيرة التي كنّا نعيشها تلك الأيام في ظل حكومة البعث الغاشمة وكانت قد أشغلت الأفكار والمشاعر وأورثت القلق والاضطراب لدى الكثيرين ، وهي محنة التسفير الذي قامت به سلطات البعث في العراق ، حيث حاولت إخراج قطاع كبير جداً من سكنة العراق بحجة أنهم لا يحملون الجنسية العراقية .

وقد شمل هذا الحكم أكثر أبناء الحوزة العلمية في النجف الأشرف ، وكان هذا يشكل خطر التمزق والانهيار على كيان الحوزة العلمية وبالتالي على المرجعية الدينية العليا .

كما وأن المرجعية الدينية كانت قد واجهت ذاك الحـين خطـرا عظيماً آخر من جراء المواقف العدائية السـافرة الـتي اتخـذتها حكومة البعث الظالمة تجاه المرجع الديني الأعلى (السيد محسـن الطباطبائي الحكيم – قدس الله نفسه) ، في قضـايا وأحـداث سجلها التاريخ عارا وشنارا في وجه هذا الحزب العميل وسلطته الغاشمة .

وإليك إلمامة سريعة بما جاء في هاتين المحاضرتين حول (المفهـوم القرآني عن المحنة) :

بدأ السيد الشهيد (رضوان الله عليه) بتقسيم جوانـب المحنـة بصورة عامة إلى :

1. الجانب الموضوعي : وهي مجموعة الظروف والملابسات والعوامل الخارجية التي تؤدي إلى تكوين المحنة .
2. الجانب الذاتي : وهو دور الإنسان الممتحن وموقفه إزاء المحنة قبل وقوعها وبعد وقوعها .

وقد ترك الحديث عن الجانب الموضـوعي للمحنـة في هـاتين المحاضرتين ، وصبّ جهده في توضيح الجانب الـذاتي وشـرحه وتفصيله ، فقسّمه إلى :

أ. موقف الإنسان الممتحن ومستواه الشعوري إزاء المحنة بعد وقوعها .

ب. دوره الإيجابي في تكوين هذه المحنة قبل وقوعها .

وقد خص الحديث في المحاضرة الأولى بالأمر الأول من الجانب الذاتي ، أعني موقف الإنسان الممتحن ومستواه الشعوري إزاء المحنة بعد وقوعها ، ووضّح لنا خلال ذلك أن شعور الإنسان الممتحن تجاه محنته تارة : يكون شعوراً شخصياً محدوداً لا يتعدى حدود مصالحه الخاصة .

وأخرى: يكون شعوراً إقليميا أو طائفياً لا يتعدى حدود مصالح الإقليم أو الطائفة أو الوطن.

وثالثة : يكون شعورا إسلاميا وسيعا يحمل همّ الرسالة الإسلامية العظمى .

ومثّل لنا في ذلك بمحنة الصراع بين الأكراد والعرب ، وأكد بعد ذلك على أن شعورنا تجاه محنة الطرد والتشريد لابدّ وأن يتجاوز الإطار الضيق ويبلغ مستوى الشعور بالمسؤولية تجاه الرسالة الإسلامية التي واجهت الخطر العظيم بسبب الضربات التي بدأ أعداء الإسلام يوجهونها على كيان الحوزة العلمية في النجف الأشرف .

ومن هنا بدأ (رضوان الله تعالى عليه) بذكر أهمية كيان المرجعية الدينية في الحوزات العلمية ((هذا الكيان الذي بذل في سبيله من جهود سلفنا الصلاح الطاهر . من أصحاب الأئمة عليهم الصلاة والسلام ، ومن أجيال الفقهاء بعد ذلك جيلا بعد جيل ، بذل في سبيل هذا الكيان ، ودعمه وتطويره ، وتنميته ، وجعله مشعلا للإسلام في كل أرجاء العالم الإسلامي ، بذل في سبيل ذلك من الدم الطاهر ، والوقت الطاهر ، والعمر الطاهر ، ما امتلأ به تاريخ سلفنا الطاهر)) .

وأشار بهذا الصدد إلى استشهاد الشهيد الأول (رحمه الله) . وإلى المحن التي تعرض لها محمد بن أبي عمير (رحمه الله) في هذا السبيل .

كما استعرض موجزا من تاريخ الحوزة العلمية والمراحل التي مّرت بها ، وهي :

1. مرحلة الاتصال الفردي بين المرجع الديني وبين الناس .
2. مرحلة الجهاز المرجعي .
3. مرحلة التمركز والاستقطاب .
4. مرحلة قيادة الأمة في صراعها مع الكافر .

ثمّ أكد (رضوان الله تعالى عليه) على أن الشعور بالمسؤولية الرسالية تجاه المحنة لابدّ وأن يشتمل على مظاهر وخواص أهمها :

1. الشمول والعموم : فان المحنة التي تمس الرسالة إنما هي محنة الجميع وإن لم تواجه الجميع وجهاً لوجه .
2. عدم الانهيار تجاه المحنة .
3. محاسبة النفس ، ووضعها موضع الامتحان و الاختبار بصورة مستمرة دائمة .

وأما المحاضرة الثانية ، فقد خصّ الحديث فيها بالأمر الثاني من الجانب الذاتي من المحنة ، أعني الدور الإيجابي الذي يلعبه الإنسان الممتحن في تكون محنته قبل وقوع المحنة . وذكر في هذا الصدد أن منطلق المصيبة والمحنة هي الأرضية النفسية غير الصالحة التي يعيشها الإنسان طيلة حياته قبل وقوع المحنة ، وحلّل هذه الأرضية النفسية إلى عاملين أساسيين :

العامل الأول : هو عدم الشعور التفصيلي بالارتباط بالله سبحانه وتعالى .

و العامل الآخر : هي النزعة الأخلاقية غير الصالحة التي تسبق المحنة .

ويمرّ الشهيد (رضوان الله تعالى عليه) بالعامل الأول مرور شرح وتفصيل ، يذكر فيه محنة (يوسف بن تاشفين) ويؤكـد علـى ضرورة الشعور التفصيلي بالاتصال بالله تبارك وتعالى . ثم يعرج إلى العامل الآخر ليؤكد على أن العمل الرسالي الصحيح لا بدّ له مسبقاً من نزعة أخلاقية صالحة ، وهذه النزعة الأخلاقية الصالحة تشتمل على مظاهر أساسية لابدّ من تحصيلها ، وهي :

1. روح التضحية والإيثار بالمصلحة الشخصـية في سـبيل المصالح العامة .
2. نزعة التجديد في أساليب العمل .
3. استخدام العقلية الاجتماعيـة فيمـا يـرتبط بالعمـل الاجتماعي .

وبهذا يختم حديثه (رضوان الله تعالى عليه) عن المحنة في هـاتين المحاضرتين القيمتين .

وأخيرا : لابد لي من الإشارة إلى أنني قد التزمت في نقل هـاتين المحاضرتين بذكر نصّ عبارات استأذنا الشهيد (قدس الله روحـه الزكية) عن طريق ما حصلت عليه من التسجيل الصـوتي . ولا يوجد في ذلك تصرف مني إلاّ في حدود ما يلي :

1. إضافات هامشية بسيطة .
2. إضافة عناوين مناسبة لكل موضوع .
3. وضع علامات الترقيم المناسبة .
4. تعديلات لفظية بسيطة جداً في حدود تغيير بعض الحروف ، أو حذف كلمة مكررة ، أو نحو ذلك .

وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه وأداءً لجزء من حقوق أستاذنا الشهيد (رضوان الله تعالى عليه) .

كما وأسأله التوفيق لإحياء غير هذا من آثاره القيمة .

إنه ولي التوفيق

16/صفر/1404 هـ

علي أكبر حائري

المحاضرة الأولى
يوم السادس والعشرين من شهر
صفر من سنة 1389 الهجرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بســـم الله الـــرحمن الــرحيم ، وأفضل الصلوات على سيد الخلق وآله الطيبين الطاهرين .

تحليل جوانب المحنة:

أي محنة تمر بالإنسان المسلم لها جانبان : جانب موضـــوعي .. و جانب ذاتي ..

§ الجانب الموضوعي ، أقصـــد بـــه مجموعـــة الظـــروف والملابسات و العوامل الخارجية التي أدّت إلى تكوين هذه المحنـــة ووضعها بين يدي هذا الإنسان المـــتحن ، أو هـــذه الجماعـــة الممتحنة .

§ و الجانب الذاتي من المحنة أقصد به دور هـــذا الإنســـان الممتحن وموقفه من المحنة بعد وقوعها ، وقبل وقوعها .

فهناك في الجانب الذاتي أمران :

أحدهما : موقف الإنسان الممتحن ومستواه الشعوري ، والنفسي ، والإدراكي إزاء المحنة بعد وقوعها .

والأمر الآخر : هو دوره الإيجابي في تكوين هذه المحنة قبل وقوعها ، القدر الذي ساهم فيه عن قصد أو لا عن قصد ، عن خبث أو عن حسن نية ، في تكوين هذه المحنة التي يواجهها .

ولهذا ، حيث أن كل محنة لها جانبها الموضوعي وجانبها الذاتي .. فلا بدّ للممتحنين جميعاً – بالإضافة إلى التفكير في الجانب الموضوعي الذي تتولى التفكير فيه الجهات المسئولة عن تلك المحنة – أن يفكروا في الجانب الذاتي من المحنة أيضا ، أن يعيشوا المحنة كعملية تطهير لأنفسهم ، وتزكية لأرواحهم ، وتصميم على التوبة من التقصيرات المتراكمة المتلاحقة التي عاشوها عبر حياهم العملية والعلمية ، هذه التقصيرات التي قد لا يُحسّ بكل واحد منها على حدا ، لكنها حينما تتراكم تتحول إلى فتنة تأكل الأخضر واليابس ، تأكل من ساهم ومن لم يساهم ، تأكل من قصّر ومن لم يقصّر ، تأكل الحسين سلام الله عليه .

أليست تلك التقصيرات المتراكمة التي عاشها المسلمون منذ أن سقط الإمام علي عليه السلام صريعاً في المحراب ، في سبيل الدفاع عن المسلمين ، التقصيرات المتراكمة التي عاشتها الكثرة الكاثرة من المسلمين ، ألم تأكل الفتنة التي تمخضت عن تلك التقصيرات كل الناس حتى الحسين (ع) ؟ حتى الحسين نفسه أكلته الفتنة بالرغم من أنه كان أصفى الناس وأبعد الناس عن التقصير في قول أو عمل . إذن فدرس هذا الجانب الذاتي واختبار نفوسنا – ونحن نواجه محنة – واختبار مشاعرنا تجاه المحنة –

واختبار مشاعرنا تجاه المحنة بعد وقوعهـــا ، واختبـــار أعمالنـــا التمهيدية التي مهّدت لهذه المحنة .. هذا الاختبار عمل ضـــروري آني يجب أن لا يشغلنا عن الألم . يجب أن لا ننشـــغل بـــالألم أو بالانفعالات العاطفية عن حساب مرير من هذا القبيـــل . ونحـــن كيف يمكن أن نترقب فرجاً من الله ، أن نترقب رحمة من الله تعالى إذا كنا لا نتفاعل مع النُّذُر التي يريد الله تبارك وتعالى أن يميّز فيها الخبيث من الطيّب ، ويريد بها أن يفتح أمامنا أبواب التوبة مـــن جديد وأبواب التطهير من جديد .

إذا شئنا أن نرجوا من الله تعالى رجاء حقيقياً أن نرجوا منه الرحمة والإمداد والعون على الصبر والثبات ومواصلة الخط .. فـــأول شروط ذلك أن نتجاوب مع هذه النُّذُر ونعيش مع الله لنقرأ مـــن جديد صفحات حياتنا وأعمالنا وما قدمنا و ما أخرنا .

مشاعرنا تجاه المحنة :

وقبل أن نرجع إلى الوراء – أعني إلى ما قدّمنا – نبـــدأ بـــالأمر الأول ، أي بمشاعرنا تجاه المحنة . لابدّ قبل كل شيء أن ننظّـــف هذه المشاعر وأن نجعل مشاعرنا تجاه المحنة ، مشـــاعر صـــحيحة إسلامية تنبض بالغيرة على الإسلام لا بـــالغيرة علـــى مصـــالحنا

الخاصة ، بالغيرة على الوجود الكلي لهذا الكيان لا بالغيرة على هذا الوجود وهذا الوجود وهذا الوجود ، لأننا ما لم ننظف هذا الشعور ونحن في غمرة الامتحان القاسي المرير ، ما لم نستطع على أقل تقدير أن ننتصر في معركة تغيير هذا الشعور وفي معركة إيجاد شعور نظيف تجاه هذا الامتحان ، ما لم نستطع أن نغيّر هذا القدر الضئيل من نفوسنا .. كيف نطمح أن نبني أنفسنا ككل ؟ وكيف نطمح أن نبني المسلمين ككل ؟ . إذن منطلق الحديث هو هذا الشعور الذي يواجهه الإنسان الممتحن تجاه محنته .

كيف يكون هذا الشعور ؟

كثيرا مّا توجد محنة ، وتولّد المحنة مشاعر متعددة ، وبالرغم من وحدة المحنة تختلف هذه المشاعر في درجاتها ومستوياتها تبعاً لاختلاف التصور والتفكير ولاختلاف الروحية والاتجاه . واختلاف الشعور يؤدي لا محالة إلى اختلاف الموقف الذي يتخذه الممتحن تجاه محنته ، إذ تبعاً لنوعية الشعور سوف يتخذ الموقف المطلوب وفقاً لذلك الشعور .

محنة الصراع بين الأكراد والعرب :

أضرب لكم مثلا قبل أن نأتي على الموضوع الذي نتحدث عنه .

مثلا هناك محنة يعيشها العراق منذ سنين وسنين ، محنـــة صـــراع مسلح بين أخوين مسلمين في الشمال ، بين بعض الأكراد وبعض العرب ، هذه المحنة يعيشها العراق .

قد يكون شعور بعض الناس إزاء هذه المحنة أن هذه المحنة كلّفتـــه ولده ، كلّفته أخاه ، كلّفته صديقه ، لأنه أُخذ أخوه ، أو أُخـــذ أبوه ، أو أُخذ صديقه إلى المعركة فقتل . قد يعيش هذه المحنة على هذا المستوى ويشعر بها بهذه الدرجـــة ، وهـــذا هـــو الشـــعور الشخصي المحدود بالمحنة . وموقفه إزاء هذا الشـــعور أن يُهَـــرّب أخاه ، أن يتهرّب من واجبات القانون حتى لا ينخرط في مأســـاة من هذا القبيل ، ولا يرى له واجباً من وراء ذلك .

وأخرى يتعمق هذا الشعور أكثر فأكثر ، فيكون شعوره إزاء المحنة شعورا إقليميا على أساس أن أبناء البلـــد الواحـــد يتصـــارعون ويتنازعون فيما بينهم ، وهذا الشعور والانفعال الإقليمـــي تجـــاه المشكلة يؤدي إلى اتخاذ موقف أوسع مـــن الموقـــف الأول ، إلى موقف يفكر فيه بأنه كيف يعيد الصفاء والسلام إلى أبناء البلـــد الواحد .

وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذاك ، قد يشعر بإزاء المحنة أن هذه المحنة هي نتاج عدم تطبيق شريعة الله تعـــالى علـــى هـــؤلاء

المسلمين ، إن عدم تطبيق شريعة الله عليهم هـــو الـــذي أدّى إلى تعميق التناقض بين الأخ وأخيه حتى ولدت مشكلة بـــين هـــذا وذلك وتصارع الكردي والعربي .

حينئذ ، هذا الشعور سوف يولّد موقفا يختلف عن الشعور السابق الإقليمي أو الشعور الأسبق الشخصي ، سوف يجعله هذا الشعور يحمل همّ الشريعة ويصل إلى السبب الحقيقي لهذا التوتر .

المحنة التي نعيشها :

كذلك المحنة التي نعيشها - (هي محنة تسفير مجموعة من طلبـــة العلوم الدينية من النجف الأشـــرف بأيـــدي الطغـــاة وعمـــلاء الاستعمار الغاشم في حكومة البعث الظالمة ، إذ كـــان في ذلـــك خطر تفتت الحوزة العلمية وانهيارها) (علي أكـــبر الحـــائري) – تـــارة يفكر هذا الشخص الذي طورد وشرد أن المحنة هي أنه قد فقـــد أيام الدعة والراحة ، واليوم يعيش حياة القلق والارتباك ، أما هو فقط أو هو مع قطّاع معين من الحوزة يعيشـــون حيـــاة القلـــق والارتباك لأنهم مطاردون مشردون من قبل الوضع الذي يعيشون في داخل إطاره . قد يكون الشعور تجاه هذه المحنة هـــو شـــعور شخص يفقد الأمن والاستقرار ولابد أن يفـــتش عـــن الأمـــن والاستقرار . وهذا هو الشعور الشخصي المحدود الّذي لا يمكـــن

أن يدخل في حساب بناء حقيقي لأن هذا الشعور من طبيعتـــه أن يجعل هذا الإنسان يحسب حساب المحنة في حدود علاقتـــها معـــه شخصيا ، فان كان هو في منجى من هذه المحنة على أساس أنه لا يدخل في نطاق ذلك القطاع المطارد فعلاً فسوف لن يتفاعل مـــع المحنة ، سوف لن يشعر بوجودها .

وذاك الإنسان الآخر الذي دخل في ذلك القطاع الذي يعـــيش فعلاً مشكلة التشريد و التطريد والمراقبة سيفكر أيضا في عـــلاج المشكلة في حدود أنها مشكلة جعلته يفقـــد أمنـــه واســـتقراره ، وحينئذ يفكر أول ما يفكر في أن يغادر الساحة ما دامت هـــذه الساحة وما دام هذا المكان لا يوفر له حياة الاستقرار والثبـــات والطمأنينة وما دام بالإمكان أن ينتقل منه إلى مكان آخر أكثـــر استقرارا وطمأنينة ، فلماذا يستعجل ؟ لماذا لا يغادر هذا المكـــان وبذلك تنحل المشكلة .

في الواقع إن السلبية التي توجد في بعض الأفراد الذين يعيشون في إطار هذه الحوزة تجاه هذه المحنة وروح الهزيمة الموجودة في بعـــض الأفراد الآخرين الذين يعيشون في إطار هذه الحوزة .. هذا وذاك معاً نشئا من نوعية الشعور وردّ الفعل النفسي الذي يعيشونه تجاه المحنة . حينما ينظر إلى المحنة أنها محنة حياة استقرار قد فقدت وإنها

محنة التفتيش عن وضع أكثر طمأنينة .. حينئذ سوف لن يشعر بالمحنة ذاك الذي لم يتعرض فعلا للاضطراب ، وسوف يفكر من تعرض للاضطراب فعلا بأن يفتش عن مكان لا اضطراب فيه .

هذا هو المنطق الطبيعي والنتيجة الطبيعية لشعور شخص مصلحي وانفعال محدود تجاه المحنة .

وأما حينما نعيش شعورنا وغضبنا وألمنا للّه لا لأنفسنا ، حينما نشعر بأن المحنة ليست هي أننا فقدنا حياة الاستقرار والطمأنينة .. متى كنا نعيش حياة الاستقرار والطمأنينة منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ منذ وقعت تلك المصيبة العظيمة ، حينما خلّف القائد الأعظم في مثل هذه الأيام أمة بناها بجهده وتضحياته وسهره في آناء الليل وأطراف النهار ، حينما ترك هذه الأمة وهي بعد في بداية الطريق تواجه ألوان العواصف والمحن والمشاكل .. منذ تلك اللحظة لم يعش الإنسان المؤمن حياة الاستقرار . ألم يصف الأمير عليه الصلاة والسلام الفتنة التي وجدت وولدت عقيب وفاة النبي (ص) بأنها (الفتنة التي يشيب فيها الوليد) فهل تكون حياة يشيب فيها الوليد هي حياة الاستقرار والاطمئنان ؟ .

لكن الفرق هو أنّ هناك من الناس من لا يحس بفقدان الاستقرار ، ولا يدرك أنه لا استقرار إلاّ حينما تمسّه النار ، إنّ الواقع لم

يتغير ولم يختلف منذ مئات السنين ، حياة الاستقرار والدعة غير موجودة لشخص يحمل الهموم التي كان يحملها ذلك القلب الكبير قلب الأمام علي عليه الصلاة والسلام الذي قال بأن الفتنة يشيب فيها الوليد ، الشخص الذي يعيش تلك الهموم لا يجد في الدنيا حياة الاستقرار والدعة ، بل هي حياة العناء والمسؤولية ، حياة الكفاح والجهاد ، لا حياة الدعة والاستقرار مهما توفرت أمامه أسباب الرخاء بحسب الظاهر .

إذن فالمشكلة ليست أنا فقدنا حياة الدعة والاستقرار ، نحن كنا قد فقدنا حياة الدعة و الاستقرار منذ عصف القدر بنبيّنا صلى الله عليه وآله ، ولئن كان بعضنا يشعر مؤقتا بالدعة والاستقرار فهذا لأنه لم يعض تلك الهموم ، لأنه لم يكن مع الناس ، لأنه لم يكن على مستوى المسؤولية ، وإلاّ كان من المفروض أن لا يعيش حياة الدعة والاستقرار وإمامه يقول بأنها فتنة يشيب فيها الوليد وتلك الفتنة التي يشيب فيها الوليد لا يمكن أن تتوفر للأنسان حياة الدعة والاستقرار . إذن فلا دعة ولا استقرار ، نحن لم نخسر دعة واستقرارا ، وإنما أمتُحِنّا في كيان ، أُمتُحِنّا في هذا الكيان الذي ورثناه منذ مئات السنين ، هذا الكيان الذي بذل في سبيله من جهود سلفنا الصالح الطاهر من أصحاب الأئمة عليهم الصلاة

والسلام ، ومن أجيال الفقهاء بعد ذلك جيلاً بعد جيل . بذل في سبيل هذا الكيان وتدعيمه وتطويره وتنميته وجعله مشعلا للإسلام في كل أرجاء العالم الإسلامي .. بذل في سبيل ذلك من الدم الطاهر والوقت الطاهر والعمر الطاهر ما امتلأ به تاريخ سلفنا الطاهر . المشكلة هي مشكلة هذا الكيان .

إذن فليست المشكلة مشكلة هذا الفرد ، أو هذا الفرد ، و إنما هي مشكلة هذا الوجود الكلي لكل هؤلاء الأفراد . و هذا الكيان كما قلت ليس كيانا قد وصل إلينا مجاناً حتى نستطيع أو حتى يجوز لنا – بمبررات الهزيمة النفسية – أن نسلمه بسهولة ، إن ننسحب عنه باختيار ، أن نضيعه بأنفسنا .. و إنما هو كيان وصل إلينا عبر تاريخ مليء بالتضحيات بالعمل الصالح و الجهاد الصالح.

هذا هو الكيان الذي تسربت في كل أرجائه الآلام التي عاشها (محمد ابن أبي عمير) في سبيل إنشاء هذا الكيان و مئات من أمثال محمد ابن أبي عمير من أصحاب الأئمة عليهم الصلاة و السلام الذين عاشوا ألوان المحنة و الاضطهاد و ألوان البلاء في سبيل ترسيخ بذور هذا الكيان.

المحنة التي عاشها (محمد بن أبي عمير)

أليس (محمد ابن أبي عمير) على سبيل المثال هو ذاك الشـــخص الذي استطاع أن يصمد لا أمام خوف نفسي بل أمـــام تعـــذيب خارجي ، وجهه عليه أعظم سلاطين العالم في ذالك الوقت.

استدعي من قبل جهاز ذلك السلطان و كلف بأن يشي بالشيعة لأنه كان من مشاهير فقهاء الشيعة . قيل له : أنت تعرف أسمـــاء الشيعة ، اذكرهم لنا ، و أنت بخير ، امتنع محمد ابن أبي عمير ، و بقي يكرر بأني أعرف من الشيعة محمد بن أبي عمير و محمد ابـــن أبي عمير ، و قالوا : و بعد من ؟ .. قال : و محمد ابن أبي عمير . قالوا : و بعد ؟ .. قال : و محمد ابن أبي عمير .

فأمر به فضرب حتى أغمي عليه.قال – عليه رضوان الله - : أنه في حالة هذا الضرب صارت عندي لحظة ضعف ، حاولـــت أن أنطق ، حاولت أن أذكر أسماء جملة مـــن الأصـــحاب ، ومـــن الأخوان من تلامذة مدرسة الأمام جعفر ابن محمـــد الصـــادق ، فتمثل أمامي شيخي (حمران) – وكان حمران ميتاً وقتئذ – تمثل أمامي وفي مخيلتي شيخي وهو يقول لي : يا محمد إيّاك وأن تنطـــق بكلمة ولو متّ تحت السياط . يقول : فاستعدت رباطة جأشـــي وقوتي وحولي وطولي وصمّمت على أن لا أنطق مهمـــا كلـــف الأمر.

حمل هكذا إلى بيته بعد أن عجز الآخرون عـــن اســـتنطاقه ، ثم صودرت أملاكه ، صودرت أمواله ، كان بزّازا تـــاجرا واســـع النطاق في الثراء والمال ، وأصبح بين عشية وضحاها إنسانا فقيرا لا يملك شيئا من الأموال ، يجلس في شرفة بيته يشتغل برواياتـــه وأحاديثه .

قصة نهب داره هي القصة التي جعلتنا نخسر كثيراً مـــن أســـانيد روايات (أبن أبي عمير) . يقولون : أن الســـبب في أن أكثـــر روايات هذا الرجل العظيم كانت مراسيل [الرواية المرســـلة في اصطلاح الفقهاء : هي الرواية التي لم يذكر فيها أسماء جميع رجال سندها المتصل بالمصدر الأول] هو أن كتب هذا الرجل العظـــيم كانت في جملة الأموال التي نهبت وصودرت من بيته مـــن قبـــل الآخرين ، ولهذا بقي ينقل ما علق بذهنه وكان لا يحفظ الأسانيد في كثير من الأحيان فكان يرسل ، ولهذا كانت روايات أبـــن أبي عمير أكثرها مراسيل . يجلـــس في الشـــرفة ويتلـــهى ويشـــتغل بالروايات التي عرفها وهو لم يشعر بنوع من الأنهيار ، كـــان لا يزال أقوى ما يكون صمودا ، وثباتا ، واستبسالا ، واعتقادا بأن خط الأمام جعفر ابن محمد الصادق (ع) هو الخط الصالح الـــذي

يجب على الإنسان – لكي يكون إنساناً صـــالحاً – أن يواصـــل باستمرار فيه ، والبذل له ، والعطاء له بقدر ما يمكنه .
لم تجعله هذه المحنة يتململ ، يتزعزع ، ينحرف قيد أنملـــة عـــن وصايا وتعليمات الإمام جعفر ابن محمد الصـــادق (ع) . جـــاءه شخص عميل له من عملائه اللذين كانوا يشترون منه الأقمشـــة حينما كان تاجرا ، وكان عليه دين قد بقي في ذمته لمحمد أبن أبي عمير ، وكان يتقاعس عن الوفاء ، حينما بلغه أن محمد أبـــن أبي عمير وقع في محنة مصادرة أمواله وأملاكه ، جاء إليه ليقدم إليـــه المبلغ من المال – ولا أتذكر كم كان – قدّم بين يديه المبلغ وقال له : أعذرني يا شيخي إن كنت قد تأخرت حـــتى الآن في تقـــديم هذا المبلغ لأني كنت معسرا ولما سمعت بأنـــك قـــد صـــودرت أملاكك ووقعت في ضائقة قررت أن أبيع دارى ثم أقـــدم بـــين يديك حقك لكي تستعين به على أمور دنياك . ماذا قال هـــذا الفقيه الصالح ؟ ماذا قال هذا الإنسان الذي يمثل نتاج مدرســـة الأمام جعفر ابن محمد الصادق (ع) ؟ !
قال له : سمعت من أشياخي عن الأمام جعفر (ع) أنه يقـــول : ((لا يُباعُ دارُ سكنٍ في وفاء دَين)) خذ هذا المال إليك والله خـــير الرازقين !! .

إذن فهو – في قمة المحنة – لم يشأ أن ينحرف قيد أنملة حتى عـــن التعاليم والوصايا الأخلاقية التي ذكرها الأمام جعفر أبن محمـــد الصادق (ع) فإن قوله ((لا يباع دار سكن في وفاء دين)) إنمـــا يعني : أنه لا يجبر الدائن المدين على بيع دار سكن ، أما إذا تبرع لمدين بأن يبيع دار سكنه فيجوز شرعا للدائن أن يأخذ مال الوفاء ، ولكنه مكروه . هذا المفهوم الشرعي للكراهـــة جعـــل هـــذا الإنسان الممتحن يقف في هذه اللحظة موقف الإباء والتمنع ، لأنه لا يريد الحياة إلاّ لكي يضرب المثل الأعلى للإنسان المســـلم في أخلاقه وسلوكه وسيرته .

هذا الكيان (الذي تمتلكه الحوزة العلمية اليوم) هو الكيان الذي انبثت فيه آلام محمد أبن أبي عمير ومئات من أمثال محمد ابن أبي عمير .

المراحل التي مرت بها الحوزة العلمية

1. مرحلة الاتصال الفردي .
2. مرحلة الجهاز المرجعي .
3. مرحلة التمركز والاستقطاب .
4. مرحلة القيادة .

هذه الحوزة العلمية لها تاريخها الطويل الذي مرّ بعدة مراحل :

1. مرحلة الاتصال الفردي :

وقد كان فيها هذا الكيان يعبّر عن اتصالات فردية بين علماء مجتهدين وقواعد شعبية في بلاد أولئك العلماء المجتهدين ، يُستفتى العالم فيفتي ، وكان الارتباط يقوم بشكل فردي ومباشر بين الناس وبين العالم المفتي . وهذه المرحلة هي المرحلة التي عاشها أصحاب الأئمة عليهم الصلاة والسلام . واستمرت هذه المرحلة إلى أيام العلامة الحلي ، إذ كان الوضع العام لهذا الكيان إلى أيام العلامة الحلي رضوان الله عليه هو وضع علماء مجتهدين يوجد كل منه في مكان ويرتبط به شيعة يستفتونه فيفتي . ثم بعد هذا دخل مرحلة أخرى .

2.مرحلة الجهاز المرجعي :

وقد دخلها – بحسب ما أفهم من سير الأحداث – على يد الشهيد الأول (رضوان الله لعيه) [محمد أبن الشيخ جمال الدين مكي العاملي ، استشهد حريقاً بالنار يوم الخميس المصادف لتاسع جمادى الأولى سنة (786) هـ ق] التاريخية له من تطبيق الشهيد الأول (رضوان الله عليه) . قام بهذا التطبيق في لبنان وسوريا وعيّن الوكلاء وفرض جباية الزكاة والخمس على

القواعد الشعبية من الشيعة ، وبذلك أنشأ كياناً دينياً قوياً للشيعة مترابطاً لأول مرة في تاريخ العلماء . وكان إنشاؤه لهذا الكيـــان هو من أهم الأسباب التي أدت إلى مقتله (رضوان الله عليه) في قصةٍ لا مجال الآن للتوسع فيها . [تجد شـــرح حياتـــه (رض) في مصادر عديدة من جملتها الجزء السابع من كتـــاب (روضـــات الجنات) ص 3 – 25 ، طبعة قم ، سنة 1392 هــ ق]

3. مرحلة التمركز والاستقطاب:

واستمرت هذه المرحلة (مرحلة المرجعية مـــع الجهـــاز) إلى أن دخلت المرجعية (المرحلة الثالث) على يد الشيخ كاشف الغطاء ومعاصريه من العلماء ، وهي مرحلة التمركز و الاســـتقطاب . لأن المرجعية في المرحلة الثانية بالغرم من أنها كانت ذات أجهزة ، لكنها لم تكن متمركزة بنحو تستقطب العالم الشيعي كلّـــه . وفي عهد الشيخ كاشف الغطاء وعن طريق علاقات وارتباطات واسعة بني العراق وإيران ، أمكن وضع بذرة للاستقطاب والتمركـــز ، ونشأت المرجعية المركزية التي تستقطب أنظار العالم الإســـلامي . وكان لهذا الإنشاء ولهذا التطوير تضحياته الكبيرة وجهوده الـــتي لا مجال الآن أيضا للتوسع في الحديث عنها .

وفي هذه المرحلة الثالثة مرّت على هذه المرجعية فترة طويلة مـــن الزمن في عهد الحكم العثماني قبل عصر الاستعمار .

4. مرحلة القيادة :

ثمّ حينما دخل المسلمون عصر الاستعمار وجد نوع من التحــوّل والتطوّر في هذا الكيان، لأن هذا الكيان الذي كان قــد أصــبح كياناً مركزياً يستقطب أنظار العالم الشيعي ، بدأ يتســلم زمــام القيادة ، بدأ يدخل الصراع مع الكافر المستعمر ويتبنى مصــالح المسلمين ويدافع عنهم ، وهكذا دخل هذا الكيان مرحلة أخرى هي مرحلة (القيادة) زيادة على استقطابه وتمركزه ، وذلك منذ حوالي خمسين أو ستين عاما ، منــذ أحــداث دخــول النفــوذ الاستعماري إلى هذه المنطقة ، في العراق ، وإيــران ، ولبنــان ، وغيرها من أنحاء العالم الشيعي . غاية الأمر أن هذه القيادة كانت تتذبذب بين مدّ وجزر ، بين ظهور وخفاء ، حســب الظــروف والملابسات التي تمنى بها خلال عملها . إذن كل هذا التــاريخ ، كل هذه الجهود ، كل هذه التضحيات ، هي عبارة عــن هــذا الكيان الذي بأيدينا !! فهل بالإمكان أن يكون شعورنا تجاه محنة يتعرض لها هذا الكيان هو الشعور تجاه إنسان يفقــد مصــلحة شخصية محدودة فقط ! يفقد حياة الاستقرار والأمن فقــط !! ؟ هل هذا هو الشعور الذي يجب أن يكون لدى وريث محمد أبــن أبي عمير ! ؟ لدى وريث الشهيد الأول الذي بذل دمه في سبيل

هذا الكيان !؟ هل يجب أن يكون وريث ذلك الرجل العظـــيم ، يحس تجاه المحن التي تعصف بذلك الكيان ، إحساس شخص يفقد مالاً ، أو يفقد استقرارا لا !! بل يجب أن يكون أكثـــر شـــعوراً بالمسؤولية .

ومن أعظم مظاهر هذا الشعور بالمسؤولية هو الشمول والعموم ، يعني أن يكون هذا الانفعال وهذا الغضب وهذا الشعور بـــالألم يعيشه كل أبناء هذا الكيان لا أن يعيشه خصوص من يواجه النار وجهاً لوجه ، لأن هذه النار ليست نار شخص ، وإنما هـــي نـــار هذا الكيان ، فلا بدّ وأن يعيش أبناء الكيان جميعاً شعورا خاصاً ، وانفعالاً معيناً ، وتضامناً معيناً ، في هذا الموضوع . يجب أن يشعر أيّ واحد منّا بأن الجسم الواحد إذا قطعت يده اليمنى أو قطعت يده اليسرى فليس بإمكان اليد الأخرى أن تقول : أنا في أمـــان لأنّي إحدى اليدين إذا قطعت فإن اليد الأخرى سوف تشل عـــن العمل في لحظة عاجلة أو آجلة حتماً .

إذن فالمسألة مسألة جسم واحد ، ومسألة كيان واحد ، ولا بـــدّ أن يعيش أبناء هذا الكيان الواحد شعوراً واحداً تجاه الموضوع .

ثمّ أولئك الذين يواجهون الأحداث واجهاً لوجـــه يجـــب أن لا ينهاروا ، ألاّ يفقدوا إرادهم بين ساعة وأخرى ، أن لا يشـــعروا

بأن حل المشكلة هو أن يغادروا أرض الله الطيبة هنا ، ويـــذهبوا إلى أرض أخرى . هذا لا يحل المشكلة ، هذا هو الـــذي يجعـــل الكيان يتفتت ويجعل هذه الحوزة تنتهي بعمل اختياري لا بعمـــل قسري وهذا هو الذي يعطي أكـــبر الأضـــرار علـــى الإســـلام والمسلمين . إن هذا البلد ، أن هذه الأرض ، إن الإسلام الـــذي قام بإعالتك ، قام بالإنفاق عليك أو عليّ ، قام بإعالتنا والإنفاق علينا .. هذا الإسلام نحن مدينون له بوجودنا ، مدينون له بأموالنا ، مدينون له بكرامتنا ، بعزتنا ، بكل ما نملك من اعتبار ، هـــذا الإسلام إذا كلّفنا أن نقيم على الضيم أسبوعاً ، أو أســـبوعين ، شهراً أو شهرين ، أن نتحمل الأذى في سبيل الله ، أن نصمد أن نصر . في سبيل أن لا يتفتت ، في سبيل أن يواصل وجوده حـــتى تنكشف هذه الأزمة عن الإسلام والمسلمين .. إذا كلفنا ذلـــك فليس هذا التكليف بالنسبة إلينا تكليفا غير طبيعي . لأنـــه هـــو المحسن الذي كان دائماً يقدم ونحن نأخذ ، الذي كـــان دائمـــا يتفضل ونحن نستفيد ، الذي كان دائما ونحن نتمتع بكل ما يقدم لنا من خيرات ومكاسب وجاه عريض .

ما هو جاهنا !؟ ما هو اعتبارنا !؟ لولا الإسلام !! بمَ نصول ؟ .. بمَ نجول ؟ ألاّ بالإسلام ! .

بمَ عشنا طيلة هذه المدة !.

بمَ استقطبنا من استقطبنا من قلوب المؤمنين !؟ أي واحد منكم لا ينفذ إلى قلب شخص ألاّ عن طريق الإسلام ! فلا تبيعوا الإسلام بثمن رخيص ! لا تبيعونه بانسحاب سريع لا مبرر له ! لا يوجد هناك مبرر لمثل هذا الانسحاب ألا ذلك الشعور الضيق !!

اللهمّ أملأ قلوبنا إيمانا .

اللهمّ اجعلنا على مستوى المسؤولية .

اللهمّ أمددنا بإمداد منك ..

اللهمّ أجعلنا نعيش المحنة كما يعيشها المؤمنون الصابون ، الصامدون ، الذين يعيشونها لله لا لأنفسهم .

اللهمّ ذكّرنا دائماً بأن علي أبن أبي طالب عليه الصلاة والسلام حينما وقف يقاتل عمرو بن عبد ود وعاش الغضب لحظة لنفسه توقف عن قتل عمرو بن عبد ود حتى يرجع إليه غضبه لله تعالى وحتى يتألم لله .

اللهمّ ذكّرنا بذلك حتى تجعل ألمنا دائماً لله لا لأنفسنا ، للإسلام لا لمصالحنا ، للكيان العام لا لوجودنا .

محنة المدّ الأحمر في العراق :

أنا حينما مرّ بالعراق المدّ الأحمر (الشيوعي) كنت ألــف مــرة ومرة أمتحن نفسي ، أوجه إلى نفسي هذا السؤال :

إني أنا الآن أشعر بألم شديد !! لأن العراق مهدد بخطر الشيوعية ، لكن هل إني سوف أشعر بنفس هذا الألم ، وبنفس هذه الدرجــة لو أن هذا الخطر وجّه إلى إيران بدلا عن العراق ، لو وجّــه إلى باكستان بدلاً عن العراق وإيران ، لو وجّه إلى أي بلد آخر مــن بلاد المسلمين الكبرى ، بدلا عن هذه البلاد ..

هل سوف أشعر بنفس الألم أو لا أشعر بنفس الألم ؟ لأرى أن هذا الألم الذي أعيشه لأجل تغلغل الشيوعية في العراق هل هو لأجل خبزٍ سوف ينقطع عني ؟ !!

أو لمقامٍ شخصي سوف يتهدم ؟!!

أو لكيان سوف يضيع ؟!!

لأن مصالحي الشخصية مرتبطة بالإسلام إلى حد مّا ، فهل أن ألمي لأجل أن هذه المصالح الشخصية أصبحت في خطر ؟؟ . إذا كان هكذا .. إذن فسوف يكون ألمي للشيوعية في العراق أشد من ألمي للشيوعية في إيران .. أو أشد من ألمي للشيوعية في باكستان .

وأما إذا كان ألمي لله تعالى ، إذا كان ألمي لأني أريد أن يعبد الله في الأرض ، وأريد أن لا يخرج الناس من دين الله أفواجا ..
فحينئذ سوف ارتفع عن دود العراق وإيران وباكستان ، سوف أعيش لمصالح الإسلام ، سوف أتفاعل مع الأخطار التي تهدد الإسلام بدرجة واحدة دون فرق بين العراق وإيران وباكستان وبين أي أرجاء العالم الإسلامي الأخرى !! ..

محاسبة النفس :

كل واحد منا يجب أن يحاسب نفسه قبل أن يدخل إلى محاسبة الآخرين ، يجب أن يتأمل في آلامه ، في انفعالاته النفسية ، هل هي انفعالات لله أو انفعالات لمصالحه ؟!
إذا كانت انفعالاته لمصالحه فيجب أن لا يرجو من الله شيئا ، يجب أن لا يرجو من الله حتى الثواب . لأنه هو يتألم لنفسه لا يتألم لله ، فلماذا يثيبه الله ؟ على ماذا يثيبه الله ؟! سوف يكون محروما حتى من الثواب الآجل فضلا عن الفرج . أما إذا كان ألمه لله حقيقة ، إذا كان انفعاله لله حقيقة ، فحينئذ سوف يكون أوسع نفساً ، سوف يكون أوسع أفقا ، سوف ينظر إلى كل العالم الإسلامي ، إلى كل المسلمين إلى كل المشاكل بنظرة واحدة .

هذه المرجعية الموجودة اليوم ابتليت بمصائب كثيرة قبل اليـــوم ، ابتليت بمحن كبيرة ، ابتليت بمحنة كبيرة قبل بضـــع ســـنوات ! لكن أنظروا هل أن التفاعل مع تلك المحن والمصائب التي ابتليت بها المرجعية ، وابتلى بها الكيان الموجود اليوم كان بدرجة واحدة ؟! إن الشخص الذي يعيش لله يجب أن يتفاعل مع كـــل هـــذه المصائب ، مع كل هذه المحن التي يبتلي بها هذا الكيـــان بدرجـــة واحدة و بنحو واحد ، سواء كانت النـــار موجّهـــة إلى وجهـــه مباشرة ، أو موجّهة إلى أخيه ، أو موجّهة إلى أخيه الآخر .

إن تفاوت درجات الانفعال واختلاف موقف الإنسان تجاه هـــذه المحن يجب أن يعالجه كل إنسان منّا في نفسه لكي يعيش لله وغفر الله لنا ولكم جميعاً .

المحاضرة الثانية
يوم السابع والعشرين من شهر
صفر من سنة 1389 الهجرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بســـم الله الـــرحمن الـــرحيم ، وأفضل الصلوات على أفضل النبيين وآله الطيبين الطاهرين .

المفهوم القرآني عن المحنة :

قلنا إن المفهوم القرآني عن المحنة – أيّ محنة – يؤكد أن الجماعـــة الممتحنة تتحمل مسؤولية وقوع هذه المحنة بما قدمت من عمل .

حينما يظهر الفساد في البر والبحر يقول القرآن الكريم : إن هذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر هو نفس ذاك العمل الذي قدمه الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون [ظهر الفســـاد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون] الروم 31 [فالمحنة هي في الواقع تجسيد بشكل مرير للأعمال المسبقة التي قامت بها الجماعة الممتحنـــة ((ومـــا أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)) [الشـــوري 30] ، وهي في نفس الوقت موعظة ونذير من الله سبحانه .

على هذا الأساس قلنا : أننا في دراسة الجانب الذاتي مـــن المحنـــة لابدّ أن نُقيّم أولاً شعورنا تجاه المحنة – وهذا ما صنعناه بالأمس – [في المحاضرة الأولى عن المحنة] ولابد لنا ثانياً أن نحاسب أنفسنا على ما قدمنا من عمل ، وعلى مساهمتنا في تكوين هذه المحنـــة ، وعلى دورنا الإيجابي في صنعها .

الأرضية النفسية لأساليب العمل :

وهنا لا أريد أن أناقش أساليب العمل التي أدت إلى هذه المحنة ، ولا أريد أن أتحدث عن الأساليب التي من طبيعتها أن تغيّر من الموقف ، بل أريد أن أتحدث قبل ذلك عن الأرضية النفسية لهذه الأساليب .

فإن منطلق المصيبة والمحنة هو تلك الأرضية النفسية التي عشناها طيلة الزمن الذي تقدم وسبق هذه المحن . هذه الأرضية النفسية لم تكن أرضية نفسية صالحة لكي تنشأ ضمنها أساليب العمل الصالحة ، ولكي تؤتي هذه الأساليب ثمارها .

هذه الأرضية النفسية التي عشناها والتي كانت ولا تزال تساهم في خلق المشاكل في طريقنا ، وفي تكوين المحن في وجوهنا ، أستطيع أن أرجعها بالتحليل إلى عاملين نفسيين أساسيين ، وهما – بالرغم من كونهما عاملين – مرتبطان كل الارتباط فيما بينهما :

أحد العاملين : هو عدم الشعور التفصيلي بالارتباط بالله تعالى .

و العامل الآخر : هو أن الأخلاقية التي كنا نعيشها ليست أخلاقية الإنسان العامل ، بل هي أخلاقية إنسان آخر لا يصلح للعمل الحقيقي .

وإذا كنا نريد أن نستفيد من هذه المحنة ، وإذا كنـــا جــادّين في الحساب ، فلابدّ أن نرجع إلى هذين العاملين الأساســيين لكــي نستطيع أن نتيح لأنفسنا فرصة التكفير عمّا سبق بالنسبة إلى كل من هذين العاملين عامل (عدم الشعور بالاتصال بالله بالدرجــة الكافية) وعامل (أخلاقية الإنسان اللاعامل) .

1. عدم الشعور التفصيلي بالارتباط بالله سبحانه :

أما بالنسبة إلى العامل الأول وهــو عــدم الشــعور التفصــيلي بالاتصال بالله سبحانه وتعالى .. فهذا ما يقع عادة وعلــى مــرّ الزمن في حياة الطالب الاعتيادي الذي يهاجر من بلده ويأتي إلى هنا [يقصد النجف الأشرف] مــتحمّلا آلام الغربــة ، وآلام السفر ، وآلام الوحشة ، وآلام فراق الأحبة والأهل والوطن .. كل هذا التحمل يكون في اللحظة الأولى قائما على أساس شعور تفصيلي يشدّه إلى الله تعالى ، يشعر بأن هذه القوة هي التي تجذبه وتنتزعه من أهله ، ووطنه ، وبلده ، ومن أحبته ، لكي يهاجر إلى الله ، ويتعلّم على يد ورثة الأنبياء ، ثم يواصل خــط الأنبيــاء . ولكن بعد أن يدخل إلى إطار هذه الحوزة ويكون هذا الشــعور التفصيلي موجوداً في نفسه ، فينخرط في مناهجهــا ، ويســلك مسالكها ويعيش دروبها .. بعد هذا تتضاءل بالتــدريج جــذوة

شعوره بالاتصال بالله تعالى ، بينما كان من المفـــروض أن هـــذه الجذوة تنمو بالتدريج بدلاً عن أن تخمد أو عـــن أن تتضـــاءل ، وذلك لأنه حينما يأتي إلى الحوزة لا يعيش تطبيقـــاً حيـــاً لهـــذا الاتصال بالله تعالى ، وإنّما يعيش على أفضل تقدير دروسا معينة ومناهج معينة هي في حدود كونها مفاهيم وأفكار لا تغذّي هـــذا الشعور ، فيبقى هناك فراغ نفسي كبير في قلبه ، في وجدانه ، في ضميره وهذا الفراغ النفسي الكبير لا يمكن أن يملأ بمطالب مـــن الفقه والأصول ، لأن مطالب الفقه والأصول تملأ عقل الإنســـان ولكنها لا تملأ ضميره ، لا تملأ وجدانه ، فسوف يمتلئ عقله علماً ، لكن ضميره ووجدانه قد يبقى فارغاً كما كان فارغـــاً حينمـــا كان ابن القرية ، أو ابن المدرسة ، أو ابن المعمل الذي جاء منـــه إل هذه الحوزة العلمية وهذا الفراغ في الضمير والوجدان الـــذي يعيشه هذا الإنسان سوف يميّع بالتدريج شعوره بالارتباط بـــالله سبحانه حتى وإن أصبح ثريا من الناحيـــة العقليـــة . لأن هـــذا الشعور لن يجد ما يُنمّيه وما يُغذّيه لا نظريا ولا عملياً . أما نظريا فلأنه لا يأخذ من النظريات إلاّ ما يـــرتبط باســـتنباط الأحكـــام الشرعية ، والنظريات التي يستنبط على أساسها الحكم الشرعي غذاء للعقل لا للوجدان والضمير . وأما عملياً فلأنـــه لا يعـــيش

تجربة للاتصال بالله تعالى ، لا يعيش حياة عملية وإنما يعيش حياة مدرسية خالصة ، وهذه الحياة المدرسية الخالصة التي يعيشها كثيرا ما تكون مشوبة أيضا بالمبعدات عن الله تعالى ، قد تكون أحيانا مشوبة بكثير من الذنوب التي تبعد الإنسان عن الله تعالى وتميّع صلته به ، فما يمضي عليه برهة من الزمن حتى تكون جذوة ذلك الشعور التفصيلي قد انطفأت بعد أن تكون قد تحوّلت إلى ارتكاز . يعني أنه في بداية الأمر يتحول شعوره التفصيلي إلى شعور مبهم غامض يختفي في الأعماق وتتراكم عليه مشاعر أخرى لا ترتبط بالله . وهذه المشاعر الأخرى تستورد من أهواء البيئة ، من طبيعة البيئة ، من الملابسات و التعقيدات غير الصالحة يعيشها في البيئة ، تتراكم هذه المشاعر الثانوية غير الطاهرة ويبقى ذاك الشعور النظيف في الأعماق شعورا مبهما غامضا باهتا ، ثم بعد مضي زمن يتلاشى ذاك الشعور ، يتلاشى حتى كقاعدة ، ويتمزق ، ويعوّض عه شعور آخر ، حتى يصبح هذا الطالب عد أن قد قضى مرحلة طويلة من حياته العلمية ، بعد أن تهيأ من الناحية العلمية لكي يجسّد ذلك الشعور عمله ، في جهاده ، في تطبيقه ، بعد أن يكون قد وصل إلى المرحلة التي يكون مدعواً فيها إلى المساهمة في خدمة الدين .. يكون قد فرغ وجدانه وضميره نهائيا

من ذلك الشعور الذي عاشه وهو في طريقه من القرية إلى النجف وهو في طريقه من المدينة إلى النجف ، تلك الأحلام والآمـــال ، تلك التصورات الكبيرة الضخمة الروحية التي كان يعيشها وهو في طريقه إلى مهجره العظيم ، تلك التصورات تعود كلها خواء ، تعود كلها فراغاً ، لأنها بعد أن جُمّدت وأصبحت شعوراً إجمالياً قد فقدت أي غذاء وإمداد متصل حتى تمزقت ، وهـــذا معـــنى نسيان الله تعالى ، وأنتم كلكم تعرفون أن من ينسى الله ينساه الله ، من ينقطع عن الله سبحانه وتعالى .

ألم يقل الله (صانع وجهاً واحداً يكفيك الوجوه كلها) .

نحن اليوم نرى أن الوجوه كلها ساخطة علينا متبرمة ، وذلك لأننا لم نصانع وجهاً واحداً حتى يكفينا ذاك الوجه الواحـــد الوجـــوه كلها ، نحن لم نشعر خلال حياتنا العملية بأننا مرتبطون ارتباطـــا حقيقيا بالله تعالى ، وإننا مدعُوون من قبله سبحانه وتعالى إلى بذل كل وجودنا وإمكانياتنا في سبيله ، هذا الشعور حيث أننا لم نعشه ، لم نصانع وجهاً واحداً لم يكفنا الوجوه كلها . أفضلنا واشطرنا هو من صرف قواه وطاقاته في سبيل أن يصانع هذا الوجه ، وهذا الوجه ، وهذا الوجه ، وعملية مصانعة الوجوه بشكل فـــردي لا يمكن أن يؤدي إلاّ إلى نتيجة فردية . وأما من صانع ذلك الوجـــه

العظيم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض فهو القادر على أن يكفيه الوجوه كلها .

الأئمة عليهم أفضل الصلاة والسلام بالرغم من أنهم كانوا مضطهدين من قبل سلاطين وقتهم وكانوا دائماً يعيشون المحنة من حكام زمانهم ، وبالرغم من أن أجهزة تلك الحكومات كانت كلها تقوم على أساس الدعاية ضدهم ، وعلى أساس نشر المفاهيم المعاكسة لخطهم ، وبالرغم من أنهم سبوا على منابر المسلمين ألف شهر ، وبالرغم من كل الطاقات التي بذلت من قبل سلاطين الوقت في سبيل تمييعهم وفي سبيل فصل قواعدهم الشعبية عنهم .. بالرغم من كل ذلك نرى أن علي ابن الحسين عليه الصلاة والسلام حينما يأتي ليستلم الحجر الأسود ينفرج هؤلاء المسلمون الذي يسب علي ابن الحسين وأبوه وجده على منابرهم في بلادهم ، هؤلاء المسلمون الذين نشئوا ونشأ آباؤهم على سب الأمام وأبيه وجده ، هؤلاء المسلمون أنفسهم ينفرجون بين يديه ، بينما لم يكونوا ينفرجون أمام سلطان من أولئك السلاطين الذي كان ينتظر طريقه إلى الحجر فلا يجده . لماذا ؟ ! لأن علي ابن الحسين (ع) صانع وجهاً واحداً فكفاه الوجوه كلها.

لا تقولوا بأن الناس على دين ملوكهم ، لأن الملوك وقتئذ مـــاذا كان موقفهم من علي ابن الحسين ؟ هل أن هشام ابن عبد الملك أو عبد الملك نفسه كان مع علي ابن الحسين ؟ ! أكـــان يحمـــل مفهوماً صحيحاً أو يبشّر بمفهوم صحيح عن علي ابن الحسين ؟ ! لكن الناس أنفسهم كانوا مجذوبين إلى الإمام علي ابن الحسين لأنه كان يعيش بكل وجوده حالة الاتصال بالله .. وحالة الاتصال بالله بالرغم من أنها كمال للإنسان هي بحد ذاتها طاقة للنجاح في خط العمل ، لأن هذا الاتصال بالله سوف يضع قاعدة لما ســـنتحدث عنه من (أخلاقية الإنسان العامل) ، فإن أخلاقية الإنسان العامل لا يمكن أن تتكون عند الإنسان إلاّ إذا كان يعيش حاله الاتصال بالله سبحانه وتعالى عيشا تفصيليا ، إضـــافة إلى ذلـــك أن هـــذا الاتصال بالله تعالى يجعل الإنسان قادراً على أن يدعو ويترقب من الله الاستجابة ، أمّا إذا كان نسي الله تعالى أيام رخائه ، وقد ترك الله ودينه ومحنته ومشاكل رسالته ، وكان يفكر في نفسه لا في الله .. حينئذ كيف يمكن أن يرجو هذا الإنسان (حينما يقع في محنة) أن يمدّ يده إلى السماء فيستجيب الله دعائه ؟

ولماذا يستجيب الله دعائه !!

لماذا يستمع إلى لسان لم يلهج بذكر الله !!

وإلى يدين لم تتحرك في طاعة الله !!

وإلى قلب لم ينبض بالحب لله تعالى !!

نحن لا يمكننا أن نترقب استجابة الدعاء إلاّ إذا كنا نعيش حالـــة الاتصال بالله وكنا قد عبأنا وجودنا وقوانا لله سبحانه وتعـــالى ، وحينئذ يمكن أن نطلب من الله سبحانه وتعالى الإمداد والمعونـــة والتغلب على كل المشاكل والمحن .

محنة يوسف بن تاشفين :

المسلمون في اسبانيا حينما تعرضوا في القرن الخامس لغزو مسيحي من قبل اسبانيا المسيحية استنجدوا بأمير المغرب (يوسف ابن تاشفين) [يوسف بن تاشفين (1019 – 1104) م أكبر سلاطين المرابطين . أسّس مدينة مراكش وانتصر على ملوك الأندلس . (المنجد في الأعلام مادة : تاشفين)] يوسف بن تاشفين قام مع جيش جرار عبر البحر إلى اسبانيا لكي ينقذ المسلمين في اسبانيا من الغزو المسيحي الذي كان يهدد كياهم ..

تقول القصة :

أن يوسف ابن تاشفين حينما نزل البحر مع كل اسطوله وجيشه تحرك ماء البحر وهبّت عاصفة شديدة جدا كادت أن تقضي على الأسطول ، حينئذ وقف يوسف ابن تاشفين في وسط جيشه ، ورفع يديه إلى الله سبحانه وتعالى ، وقال ما مضمونه : يا رب أنت تعلم أني لم أترك بلادي ، لم أترك أرضي ، لم أعبر هذا البحر ، لم أقرر أن أطوي هذه المسافة من قارة إلى قارة (من أفريقيا إلى أوربا) لم أتحمل خطر الموت على نفسي ، على أهلي ، على ولدي ، على جيشي ، خطر تفتت مملكتي هناك ، لم أتحمل كل هذه الأخطار ألا في سبيل حماية دينك ورسالتك في اسبانيا ، في

سبيل الحفاظ على المسلمين وعلى الوجود الإسلامي في أوربا ، في سبيل ذلك قمت . الّلهمّ فإن كنت تعلم أني حسن النية في ذلك وإن كنت أعلم أن وصولي إلى الشـــاطئ فيـــه خـــير للإســـلام والمسلمين .. الّلهمّ فأسكن عنّا هذه العاصفة و أزلها عنا !!

يوسف ابن تاشفين لم يكن إماما ، أنا أمثّل بيوسف ابن تاشـــفين لأنه شخص من الناس ، لا يمكن أن يقال بأنه أفضل من أي واحد من عندنا بحسب الموازين الاعتيادية ، ليس هو الإمام علي (ع) ، ليس هو الإمام الحسين (ع) ، ليس هو أحد المعصومين (ع) ، هو إنسان من المسلمين لكنه وضع كل قواه في ســـبيل الله تعـــالى ، هاجر من بلده في سبيل الله تعالى ، كان يشعر شـــعوراً تفصـــيلياً بالاتصال بالله تعالى . هذا الشعور التفصيلي بالاتصال بالله تعـــالى جعل من حقه أن يدعو ، وجعل من حقه أن يتوقع الاستجابة من الله تعالى .

تقول الرواية التاريخية :

ما أتمّ الأمير يوسف حديثه ودعائه مع الله تعالى إلا وسكن البحر ، وهدأت العاصفة ، وتغيّر كل الملابسات إلى صالح الســـفرة ، حتى وصل يوسف ابن تاشفين سالماً إلى الشاطئ ، واســـتطاع أن

يقضي على الغزو المسيحي ويؤخر من مأساة الإسلام في اسبانيا أربعة قرون .

بقي الإسلام أربع مائة سنة بعد هذا الحادث (بعد غزو يوسف ابن تاشفين للمسيحيين الذين كانوا مجاورين للأندلس) ثم بعد أربع مائة سنة ، المسلمون هم المسلمون ، كانوا يشهدون أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، كما كان يشهد المسلمون في عصر يوسف ابن تاشفين ولكنهم كانوا نسوا الله تعالى ، وانقطعوا عنه ، وانصرفوا إلى لهوهم وفسقهم ، وتراكمت في حياتهم الذنوب ، ولم يكونوا يعيشون لله تعالى .. بعد أربع مائة سنة اضطر ملك المسلمين في غرناطة [وهي أقدم مدن (كورة البيرة) من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها .. وبينها وبين البيرة أربعة فراسخ ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخاً . (معجم البلدان ج 3 ص 788)] – وهو البلد الأخير الذي بقي للمسلمين في اسبانيا – اضطر إلى توقيع وثيقة الاستسلام ، إلى توقيع وثيقة التنازل عن الإسلام والوجود الإسلامي ، إلى توقيع وثيقة فناء الإسلام في كل اسبانيا ، اضطر إلى توقيع هذه الوثيقة .

تقول الرواية :

أنه قبل أن يوقع هذا الملك المسكين التعـــيس وثيقـــة إعدامـــه ، وإعدام دينه وعقيدته وأمّته في ذلك البلد نثر نشـــره ، ثم قـــال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رســـول الله . فضـــجّ الأمراء الذين كانوا حوله قـــائلين : أشـــهد أن لا إلـــه إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله (ص) . قال : ولكن لا رادّ لقضـــاء الله ، لا رادّ لأمر الله تعالى . ثم وقّع على هذه الوثيقة الـــتي أدّت إلى فناء الإسلام في أسبانيا .

هل كانوا مسلمين ؟!

نعم كانوا مسلمين !!

كانوا يريدون أن يؤكّدوا إسلامهم في آخر لحظة! وقّع على وثيقة إعدام الإسلام وتشهد الشهادتين ! لكنّه ما قيمة هاتين الشهادتين ؟! لأنه لم يذكر الشهادتين إلا حينما واجه خطر هذه الوثيقة ، إلا حينما أصبح ملكه وسلطانه كله في غمرة هذا الخطر . كان هذا الرجل نفسه وغيره من الأمراء المحيطين به يعيشون حالة التفتـــت والتناقض والانشغال بأمرهم عن الله إلى اليوم الأخير من حياقم ، لهذا لم ينفعهم شعورهم بالاتصال بالله في اللحظـــة الأخـــيرة ، في لحظة الغرق .

لابدّ من أن يعيش الإنسان خطه الطويل متصلا بالله تعالى حتى يمكنه أن يترقب من الله الاستجابة لدعائه ، والإمداد والمعونة والمساندة والمعاضدة في عمله .

2. أخلاقية الإنسان اللا عامل :

والعامل الثاني : هو الأخلاقية . نحن أخلاقيتنا التي نعيشها لم تكن أخلاقية الإنسان العامل .

هناك مظاهر أساسية للأخلاقية التي كنا نعيشها وهذه المظاهر هي أبعد ما تكون عن أخلاقية الإنسان العامل الذي يريد أن يحمل رسالة الله والذي يريد أن يمثل الأنبياء على الأرض . هذه الأخلاقية لابدّ لنا أن نطوّرها من نفوسنا ، لابدّ لنا أن نغيّر هذه الأخلاقية ونفتح بالتدريج أخلاقية الإنسان العامل لكي نهيئ الأرضية النفسية التي يقام على أساسها العمل الصحيح .

أ. روح التضحية والإيثار :

الأخلاقية التي كنا نعيشها من نقاطها الرئيسية الارتباط بالمصلحة الشخصية بدلاً عن الاستعداد للتضحية . نحن بحاجة إلى أخلاقية التضحية بدلاً عن أخلاقية المصلحة الشخصية ، نحن بحاجة إلى أن نكون إلى أهبة لإيثار المصلحة العامة للكيان على المصلحة الخاصة لهذا الفرد أو لهذا الفرد ، نحن لابدّ لنا من أخلاقية التضحية

بالمصالح الخاصة في سبيل المصالح العامة ، أما ما كان موجوداً فهو على الغالب إيثار للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة .

كنا نعيش لمصالحنا ، وكنا لا نعيش للمصلحة العامة حينما تتعارض مع مصالحنا الخاصة .

وهذه النزعة الأخلاقية (النزعة الأخلاقية التي تتجه نحو المصلحة الخاصة لا نحو المصلحة العامة) تجعل القدر الأكبر من طاقاتنا وقوانا وإمكانياتنا خصوصاً في جوّ من قبيل جوّ الحوزة (في جوّ غير منظم ، في جوّ لابدّ لكل إنسان أن يبني نفسه فيه بنفسه) .

في مثل هذا الجو ، إذا عاش الناس دائماً عقلية المصلحة الخاصة ولم يكن عندهم أخلاقية التضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة .. فسوف يصرف القدر الأكبر من الطاقات والإمكانيات والقابليات في سبيل تدعيم المصالح الخاصة أو في سبيل الدفاع عنها .

حينما تتوجه الاتجاهات من المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة سوف يضطر كل إنسان يعيش في جو عامر بهذا الاتجاه ، سوف يضطر كل إنسان منهم إلى التفكير في نفسه ، وإلى الدفاع عن نفسه ، وإلى تثبيت نفسه ، وبذلك نصرف ثمانين بالمائة من قوانا وطاقاتنا بالمعارك داخل الإطار ، بينما هذه الثمانين بالمائة من

القوى والطاقات التي تصرف في معارك داخــل الإطــار كــان بالإمكان – لو أننا نتحلّى بأخلاقية الإنسان العامل أعني بأخلاقية التضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة – أن نحــول هذه الثمانين بالمائة للعمل في سبيل الله بتــدعيم الإطــار ككــل وترسيخه وتكديسه وتوسيعه . وبذلك – لو كنا نعقل – لكنــا نستفيد أيضا حتى بحساب المقاييس العاجلة أكثر مما نستفيد ونحن نتنازع ، ونختلف داخل إطار معرّض لخطر التمزق ، داخل إطار مهدد بالفناء .

إلى متى نحن نعيش المعركة داخل إطار يحكم عليه بالفناء يوماً بعد يوم ، أو يواجه خطر الفناء يوماً بعد يوم !!؟ ولا نفكر في نفــس الإطار ! ولا نفكر في أن نتناسى مصــالحنا الصــغيرة في ســبيل المصلحة الكبيرة .

أخلاقية الإنسان العامل أول شروطها هو أن يكون عند الإنسان شعور واستعداد بالتضحية بالمصلحة الصغيرة في سبيل المصــلحة الكبيرة ، وهذا ما لا بدّ لنا من ترويض أنفسنا عليه .

ب. نزعة التجديد في أساليب العمل :

المظهر الثاني من مظاهر أخلاقية الإنسان العامل هـــو الاتجــاه إلى التجديد في أساليب العمل (نزعة التجديد في أساليب العمل) .

نحن عندنا (نظرية) وعندنا (عمل) النظرية هي الإســـلام ، ولا شك ولا ريب أن ديننا ثابت لا يتغير ولا يتجدد ، ولا يمكـــن في يوم من الأيام أن يفترض كون هذا الدين بحاجة إلى تغيير أو تحوير أو تطوير ، لأن هذا الدين هو أشرف رسالات الســـماء وخـــاتم تلك الأديان الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى للإنسان في كل مكان وفي كل زمان ، ولهذا فالصيغة النظرية للرسالة صيغة ثابتة لا تتغير ، ولا يمكن أن نؤمن فيها بالتجدد .

من الخطأ ألف مرة أن نقول بأن الإسلام يتكيّف وفق الزمـــان ، الإسلام فوق الزمان والمكان ، لأنه من وضع الواضع الذي خلق الزمان والمكان ، فقد قدّر لهذه الرسالة القدرة على الامتداد مهما امتد المكان والزمان .

الصيغة النظرية للإسلام صيغة ثابتة فوق التجدّيد وفوق التغيّـــر . لابدّ لها هي أن تحكم كل عوامل التغيّر وكل عوامل التجدّد ، لا أن عوامل التجدّد والتغيّر تحكم الرسالة وتحكم الإســـلام ، بـــل

الإسلام يحكم على كل عوامل التجدّد . هذا واضح على مستوى النظرية ولا بد وأن يكون واضحاً عندنا جميعا .

وأما العمل في سبيل هذه النظرية .. ففي أساليب العمل الخارجي كانت لدينا حالة أنا استطيع أن أسميها (حالة النزعة الاستصحابية الاستصحاب الذي قراناه في علم الأصول [هو البناء على ما كان] طبّقناه على أساليب العمل وطبّقناه على حياتنا ، فكنا نتّجه دائماً إلى ما كان ولا نفكر أبداً في أنه هل بالإمكان أن يكون أفضل مما كان !؟

وهذه النزعة الاستصحابية إلى ما كان والحفاظ على ما كان يجعلنا غير صالحين لمواصلة مسؤولياتنا ، وذلك لأن أساليب العمل ترتبط بالعالم ، ترتبط بمنطقة العلم ، ترتبط بالبستان الذي تريد أن تزرع فيه ، وهذا البستان وهي الأمة التي تريد أن تزرع فهيا بذور الخير والتقوى والورع والإيمان .. ليست لها حالة واحدة ، الأمة تتغير ، نعم إسلامك لا يتغير ، لكن الأمة تتغير . الأمة اليوم غير الأمة بالأمس في مستواها الفكري ، في مستواها الأخلاقي ، في علائقها الاجتماعية ، في أوضاعها الاقتصادية ، في كل ظروفها . الأمة اليوم غير الأمة بالأمس . وحيث أن الأمة اليوم غير الأمة بالأمس لا يجوز لك أن تتعامل مع الأمة اليوم كما

تتعامل مع الأمة بالأمس أنت اليوم حينما تريد أن تتصل بإنسان من أبناء الأمة في بلد آخر لا تمشي على رجليك ولا تركب حيواناً ، وإنما تركب سيارة لكي تصل إلى هناك ، يعني أنك تغيّرت أساليب عملك مع أبناء الأمة ، لماذا ؟ لأن الأمّة تغيّرت . فحيث أن منطقة العمل هي الأمة ، حيث أنك تريد أن تزرع بذورك (بذور التقوى والورع والإيمان) في الأمة .. لهذا يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الظروف والتغيرّات والتصورات التي توجد في الأمة . هذه التصورات والتغيّرات التي توجد في الأمة تحدّد لنا أساليب العمل ، وليس بالإمكان أن يكون هناك أسلوب واحد يصدق على الأمة اليوم على الأمة بالأمس وعلى الأمة غداً .

لا بدّ لنا أن نتحرر من النزعة الاستصحابية من نزعة التمسك بما كان حرفياً بالنسبة إلى كل أساليب العمل هذه النزعة التي تبلغ القمة عند بعضنا . حتى أن كتابا دراسيا مثلا – أُمثل بأبسط الأمثلة – إذا أريد تغييره إلى كتاب دراسي آخر أفضل منه ، حينئذ تقف هذه النزعة الاستصحابية في مقابل ذلك . إذا أريد تغيير كتاب بكتاب آخر في مجال التدريس – وهذا أضئل مظاهر التغيير – حينئذ يقال : لا ليس الأمر هكذا لابدّ من الوقوف ، لابدّ من الثبات والاستمرار على نفس الكتاب الذي كان يدرس

فيه الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه ، أو المحقق القمي رضوان الله عليه . هذه النزعة الاستصحابية التي تجعلنا دائما نعيش مع أمة قد مضى وقتها ، مع أمة قد ماتت وأنتهت بظروفها وملابساتها ، لأننا نعيش بأساليب كانت منسجمة مع أمة لم يبقى منها أحد ، وقد انتهت وحدثت أمة أخرى ذات أفكار أخرى ، ذات اتجاهات أخرى ، ذات ظروف وملابسات أخرى ، فحينئذ من الطبيعي أن لا نُوفق في العمل لأننا نتعامل مع أمة ماتت ، والأمة الحية لا نتعامل معها ، فمهما يكن لنا من تأثير سوف يكون هذا التأثير سلبيا ، لأن موضوع العمل غير موجود في الخارج ، موضوع العمل ميت ، وما هو الموجود في الخارج لا نتعامل معه .

يجب أن يكون واضحاً عندنا أننا يجب أن نتعامل مع هذا الإنسان الحي الموجود في الخارج المكون من اللحم والدم ، وهذا الإنسان يتغيّر ويتطّور وتختلف ظروفه وملابساته ، نحن لابدّ لنا أن نتعامل مع هذا الإنسان . وحيث أننا لا بدّ وأن نتعامل مع هذا الإنسان فلابد من أن نفكر دائماً في الأساليب التي تنسجم مع هذا الإنسان .

الشهيد الأول (رض) قبل قرون وقورن – كما قلنا بالأمس [في المحاضرة الأولى عن المحنة] فكّر في تنظيم شؤون الدّين والمرجعية بشكل من الأشكال كما قلنا ، ونقل الكيان الديني من مرحلة إلى مرحلة .

لكن أليس بالإمكان أن يفكّر مئات العلماء الذي جـــاءوا بعـــد الشهيد الأول إلى الآن ، ومئات العلمـــاء الموجـــودون فعـــلاً ، ومئات العلماء الذي سوف يخلفون هؤلاء العلماء بعد ذلـــك ، أليس بالإمكان أن يفكّر هؤلاء المئات مـــن العلمـــاء في تطـــوير أساليب الشهيد الأول ؟ في تحسينها ، في تنقيتها في تطويرها ؟ أليس بالإمكان هذا ؟

فكّر الشهيد الأول في أن يضع قواعد لهذه المرجعية ، لكن هـــذه القواعد أهي هي ؟ لابدّ وأن تبقى بحدودها التي كانـــت في أيـــام المماليك ؟ تلك الحدود التي كانت في أيام المماليـــك في ســـوريا تصدق على ما هو موجود اليوم في العالم مع تغير العـــالم ولـــيس العالم اليوم علام المماليك ؟

فإذا كنا نؤمن بأن الأساليب تتغيّر وإن كانت النظرية ثابتـــة إذن فلابد لنا أن نفتح باباً للتفكير في هذه الأساليب ، كما نفكّـــر في النظريات الفقهية والنظريات الأصولية ، كما نفكر في (الترتّب

) و في بحث (اجتماع الأمر والنهي) ، كما نفكر في أن العصير العنبي هل هو محكوم عليه بالحرمة والنجاسة أو غير محكوم عليه بالحرمة والنجاسة ... [وهذه من البحوث المعقدة في الفقه والأصول]

كذلك لابدّ وأن نفكر إلى جانب ذلك بأساليب العمل .

هذا جزء من وظيفتنا ، لأننا ندرس العلم للعمل ولا ندرس العلم لكي نجّمده في رؤوسنا ، نحن ورثة الأنبياء بحسب زعمنا [إشارة على الأحاديث الشريفة الدالة على (أن العلماء هم ورثة الأنبياء)] ، والأنبياء عاملون قبل أن يكونوا علماء ، هم علماء لكي يكونوا عاملين ، وليسوا عالمين من دون عمل . فإذا كنا نحن ورثة الأنبياء فيجب أن نفكر في أننا عالمون لكي نعمل ، فإذا كنا عالمين لكي نعمل فلابدّ وأن نجعل جزءا من وظيفتنا أن نطرح على أنفسنا ، أن نطرح على أساتذتنا ، أن نطرح على زملائنا ، أن نطرح في كل مكان هذه الأسئلة :

ما هو العمل ؟

كيف نعمل ؟

ما هي أساليب العمل ؟

كيف يمكن تجديد أساليب العمل بالشكل الذي ينسجم مع الأمة اليوم ؟

نحن نتعامل مع عالم اليوم لا مع عالم عصر المماليك إذن كيف نتعامل مع عالم اليوم ؟

هذه أسئلة قد يكون جوابها صعباً في بدية الأمر لأنه ليس هناك مطالعات وترويض فكري على الجواب عليها قد تجد أن الجواب على مسألة أصولية سهل ، لأن هذا الإنسان الذي تسأله قد درس الأصول عشرين سنة . وأما مثل هذه الأسئلة فحيث أنه بنفسها أيضا أسئلة دقيقة ومرتبطة بمدى خبرة الإنسان وتجاربه وإطلاعه على ظروف العالم .. لهذا قد يجد الصعوبة في الجواب على هذه الأسئلة ، لكن هذه الصعوبة لابد من تذليلها بالبحث والتفكير ومواصلة البحث والتفكير .

إذن فلابدّ وأن نجعل جزءا من وظيفتنا أن نفكر دائماً في أنه كيف نغير أساليب العمل ، كيف ننسجم مع وضعنا وبيئتنا .

لماذا تعيش الحوزة العلمية في هذا البلد مئات السنين ، ثم بعد هذا يظهر إفلاسها في نفس هذا البلد الذي تعيش فيه !!؟ وإذا بأبناء هذا البلد أو ببعض أبناء هذا البلد يظهرون بمظهر الأعداء والحاقدين والحاسدين والمتربصين بهذه الحوزة !!!

ألا تفكرون في أن هذه هي جريمتنا قبل أن تكون جريمتـــهم ؟ في أن هذه هي مسؤوليتنا قبل أن تكون مسؤوليتهم ؟ لأننا لم نتعامل معهم ، نحن تعاملنا مع أجدادهم ولم نتعامل معهم ! فهذه الأجيال التي تحقد علينا وتتربص بنا اليوم ، تشعر بأننا نتعامل مع الموتى لا نتعامل مع الأحياء ! ولهذا يحقدون علينا ولهذا يتربصون بنا ، لأننا لم نقّدم لهم شيئاً ، لأننا لم نتفاعل معهم .

أنا منذ سنة ، منذ أكثر من سنة أتحدث مـــع الأخـــوان ، ومـــع الأعزاء في أن كل واحد من أهل العلم – كل واحد يكون لـــه قدرة – لو كان يكّون له مجلساً تبليغياً في النجف الأشرف يضمّ خمسة فقط لا أكثر من خمسة ، يضمّ هذا البقال الذي يشتري منه لبن ، هذا العطّار الذي يشتري منه شكر ، هذا الجار الذي يسلّم عليه عندما يخرج من بيته ، يضم خمسة من هؤلاء ..

لو كان كل واحد من أهل العلم عنده مجلـــس تبليغـــي في يـــوم الجمعة بدلاً عن أن يذهب إلى (الكوفة) ويسبح من الصبح إلى العصر [(شط الكوفة) منتزه معروف يفد إليه الكثيرون في أيام العطل للاصطياف والتنزه ، وهو قريب من النجف الأشرف] ، بدلاً عن أن يبذّر الوقت بالمطاردة في الشعر ، بدلاً عن أن يبـــذّر الوقت في ألف لهو ، ولهو .. بدلاً عن كل ذلك لو أنه يســـتثمر

جزءا من هذا الوقت الذي يهدره لا في غـــرض معقـــول . لـــو يستثمر جزءا من هذا الوقت في تكوين مجلس تبليغي لخمسة من أبناء النجف .. لو أن ألف شخص من الطلبة كل واحد منـــهم يكّون مجلساً تبليغياً لخمسة ، لكان لدينا قاعدة شعبية مكونة مـــن خمسة آلاف ولأحسّ الناس من أبناء البلد بأننا نتعامل معهم ، إننا نفكر فيهم ، إننا نعطيهم ، أن وجودنا مـــرتبط بوجـــودهم ، إن حياتنا مصدر خير لهم ، مصدر عطاء لهم . لكننا لم نتعامل معهم ، ومن الطبيعي أن لا يتعاملوا معنا إذا كنا لا نتعامل معهم .

إذن لابدّ لنا أن نفكر في تغيير أساليب العمل ، ولابدّ لنا دائماً أن نفكر فيما هي الأساليب الأفضل والأصح .

ج. العقلية الرياضية والعقلية الاجتماعية :

بقيت هناك نقطة أخرى متمّمة لهذه النقطة لابدّ لي من إثارتهـــا – وأظن الوقت انتهى ، أقولها على نحو الاختصار – وهـــي : أننـــا حينما نفكر في أساليب العمل يجب أن لا نفكر في ذلك بعقليـــة الأصول والفقه ، بعقلية (الترتب) و (استحالة اجتماع الأمـــر والنهي) ، أي بالعقلية الرياضية .

هناك عقلية رياضية ، وهناك عقلية اجتماعية ، توجد عقليتـــان ، يوجد نوعان من التفكير ، تفكير رياضي ، وتفكير اجتماعي .

التفكير الرياضي : هو التفكير الذي لا يقبل حقيقة من الحقـــائق ألا إذا كانت كل نقاط الضعف فيها قد أزيلت بالبرهان القـــوي الواضح الذي لا يقبل الشك والجدال ، فإذا كانـــت النتيجـــة الرياضية واضحة بعد التحليل على مستوى أن أثنين زائدا اثـــنين يساوي أربعة حينئذ تقبل ، وأما إذا لم يكن البرهـــان الواضـــح القاطع على صحتها لا تقبل .

هذا هو التفكير الرياضي ، وهو التفكير الذي نعيشـــه في علـــم الأصول ، لأن كثيرا من قواعد علم الأصول يبنى على أســـاس البرهنة ، لكن هذا التفكير يختلف عـــن الـــتفكير الاجتمـــاعي . التفكير الاجتماعي لا يمكن أن نطلب فيه البرهان .

لنرجع مرة أخرى إلى ذاك المثال الساذج البسيط حينما نريد أن نغيّر كتابا دراسيا بكتاب دراسي آخر لا يمكن أن نتطلب في مقام الامتناع برهانا رياضيا بحيث اني أبرهن لك على أنه لو لم يدرس هذا الكتاب لوقع اجتماع النقيضين ، وأما لو درس هذا الكتاب فلا يقع اجتماع النقيضين ، مثل هذا البرهان الرياضي لا يمكن أن يكون في العمل الاجتماعي .

العمل الاجتماعي : يقوم على أساس الحدس الاجتماعي ، والحدس الاجتماعي يتكّون من الخبرة والتجربة ومن الاطلاع على ظروف العالم وملابسات العالم .

إذن فيجب أن نفتح أعيننا على العالم .

إذن يجب أن نعيش الخبرة والتجربة في العالم .

إذن يجب أن نفكر في أساليب العمل لا بالطريقة التي نفكر في علم الأصول . نغمض أعيننا ونجلس في الغرفة ونفكر في أن الترتب مستحيل أو ممكن . نعم هذه هي الطريقة المفضلة في التفكير ، في أن الترتب مستحيل أو ممكن . أن نجلس في غرفة خالية ونقفل باب الغرفة ثم نفكّر في أن الترتب مستحيل أو ممكن ، لأنها مسألة نظرية تنبع من واقع الأمر ولا تنبع من الخارج .

وأما العمل الاجتماعي فهو بحاجة إلى حدس اجتماعي ، والحدس الاجتماعي يتكون من خلال التفاعل مع الناس ..

من خلال الاطلاع على ظروف العالم ..

من خلال الاطلاع على الملابسات ..

من خلال الاطلاع على التجارب التي قام بها الآخرون ..

من خلال المقارنة بين أحوالنا وأحوال الآخرين من خلال كل ذلك يتكون هذا الحدس الاجتماعي إذن فلكي نكون متجهين

اتجاها صحيحا في تفكيرنا ، في أساليب العمل ، يجب أن نغير من طريقة تفكيرنا ، يعني أن لا نصطنع نفس الطريقة الأصولية حينما نفكر في أساليب العمل وإنما نعتمد علـــى الحـــدس الاجتمـــاعي ونفتش عن كيفية تكوين هذا الحدس في أذهاننا عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا .

وفقنا الله وإياكم

وغفر الله لنا ولكم





إن كان الحديث عن (المحنة) فما أعظم المحنة بعدك أيها الشهيد الصدر !!
ما أعظم البؤس والشقاء !!
ما أعظم اليتم والضياع !!
بعدك أيها القائد الشهيد !!
ما أقسى يد الزمان والقدر التي اختطفتك من شعبك وأمتك وأنت في بداية الطريق ! .
لا ، لا ، بل ما أشقانا نحن وما أسوأ حظنا ، إذ لم تك أهلا لوجود صرح شامخ مثلك فينا ، فقدر الله تعالى لك الشهادة ورفعك إليه ، وما كان لنا بعدك غير اليتم والضياع !

المحنة

المفكر الاسلامي
الشهيد محمد باقر الصدر

مركز أرميا للطباعة و النشر و التوزيع
www.armeea.com
armeea@live.co.uk - armeea@hotmail.com

